مميزات الحياة القبلية الكردية

الدكتور شاكر خصباك

المدرس فى قسم الجغرافية

يبدو للباحث أن المميزات العامة للحياة القبلية الكردية تنحصر فى ثلاث صفات أساسية هى الرئاسة والقتال والمسؤوليات القبلية •

١ ـ الرئاسة :

يمكننا أن ندرس مميزات الرئاسة القبلية الكردية من خلال ناحيتين ، الاولى هى متطلبات الرئاسة والثانية هى مزايا الرئاسة •

متطلبات الرئاسة :

تنبثق رئاسة القبيلة الكردية من الحاجة الى تنظيم وتوجيه النشاطات المختلفة للقبيلة ، ومع أن منصب الرئاسة وراثى فى العادة الا أنه مع ذلك يتطلب صفات معينة أهمها القوة الحربية والثروة والمقدرة الشخصية •

فالقوة الحربية ميزة ضرورية للغاية ان لم تكن شرطا أساسيا لرئاسة القبيلة الكردية ، ذلك أن القتال يعتبر وجها مهما من نشاطات القبيلة ، واذا ما علمنا أن القبيلة الكردية هى مجموعة من الافخاذ ترتبط بعضها عن طريق السكنى فى أرض معينة والخضوع الى رئاسة معينة أدركنا أهمية تمتع الرئيس بالقوة الحربية ، والواقع أن فخذ القبيلة الذى تنحصر فيه الرئاسة لا يمكن أن يحتفظ بزعامته ما لم يكن متمتعا بقوة حربية تؤهله لغرض سيطرته على بقية الافخاذ والدفاع عن القبيلة ازاء غارات الاعداء •

ان نواة القوة الحربية التى يحتفظ بها الرئيس هم المرافقون • لذلك كان عدد المرافقين ذا أهمية بالغة من وجهة نظر أبناء القبيلة أنفسهم أو أفراد القبائل الاخرى ، ويقوم المرافقون بالاضافة الى أعمالهم الحربية بحماية الرئيس وبتأديب معارضية • ويتعهد الرئيس بدوره بالانفاق عليهم وعلى عوائلهم ، ويختار الرئيس هؤلاء المرافقين من شتى الافخاذ وهم لا يرتبطون

مع بعضهم برابطة النسب ، الا أنهم يشتركون بصفة واحدة هى كونهم رعاة مترحلين ، وهؤلاء بدورهم يكرهون الارتباط بعمل نمطى ويميلون بطبيعة حياتهم البدوية الى القتال •

أما الثروة فهى صفة ضرورية للرئاسة لانها ترتبط بعدد المرافقين وبدرجة ضيافة الرئيس • وقد ذكرنا أهمية عدد المرافقين ويمكننا القول أن درجة الضيافة لا تقل أهمية فى أثرها عن عدد المرافقين • وتحدد درجة ضيافة الرئيس نوع « المضيف » الذى يتعهد بالانفاق عليه • فكلما اتسع هذا المضيف وكثر عدد زواره ارتفعت سمعة الرئيس وازداد نفوذه • ويمكن القول أن مضيف الرئيس يعتبر رمزا لوحدة القبيلة • ففيه يعلن الرؤساء الصغار (رؤساء الافخاذ) عن ولائهم للرئيس ، وبين جدرانه يحس أفراد القبيلة بالامان والاطمئنان • ولعل أبرز دليل على أهمية صفة الضيافة لرئيس القبيلة هو ما يقوم به رؤساء القبائل بالفعل من انفاق أغلب وارداتهم على المضيف ، حتى أن بعضهم كثيرا ما يضطر الى الاستدانة من التجار والمرابين •

أما المقدرة الشخصية التى لابد للرئيس من التحلى بها فتتمثل بتوفر صفات متعددة أهمها الشجاعة والتدين والذكاء • فالشجاعة صفة ضرورية للرئيس ما دام النظام القبلى يعرض القبيلة لحروب مستمرة ، وما دام رئيس القبيلة مسؤولا عن القيادة الحربية • أما التدين فهو صفة مهمة برأى الاكراد • واذا ما كان الرئيس ذا نسب أو صفة دينية كان مركزه أقوى وأرسخ • ولعل ذلك يعلل لنا كثرة رؤساء القبائل ممن يحملون ألقابا دينية فى كردستان كلقب (الشيخ) أو (الملا) • أما الذكاء فانه يساعد الرئيس على توسيع نفوذه داخل القبيلة (بين الافخاذ) وخارجها (بين موظفى الحكومة) •

مزايا الرئاسة :

ان رئاسة القبيلة الكردية تضمن للرئيس ثلاث مزايا رئيسة هى السطوة المطلقة ورئاسة القضاء القبائلى والسيطرة على أراضى القبيلة •

فأما السطوة المطلقة فهى صفة مميزة للرئاسة فى القبيلة الكردية ، وان كان الرئيس يستشير فى العادة الرؤساء الصغار أو الرجال المسنين فى القبيلة • ويقول نيكيتين انه متى ما تسلم الرئيس الفردى سلطاته فليس للفرد القبائلى أن يناقش مدى نفوذه فى أية قضية كانت[1] • أما ملينجن فقد وصف سلطة الرئيس القبائلى الكردى بما يلى : (ان الرئيس القبائلى الكردى هو ديكتاتور مطلق ، ولا حد لسلطاته • وبوسعه أن يصادر ممتلكات أى فرد قبائلى ، وأن يأمر بقتله متى ما وجد ذلك مناسبا)[2] •

وتعد قرارات الرئيس فى شؤون القبيلة نهائية ولا يمكن لأى فرد أو جماعة دحضها أو الغاؤها • أما من تحدثه نفسه بمعارضة الرئيس ومخالفة أوامره فلن ينجو من عقابه أو بطشه • ويقول شاكر فتاح فى صدد الحديث عن سلطات الرئيس القبلى : (يحاول رئيس القبيلة فى العادة حل المشاكل التى تحصل بين أفراد أفراد القبيلة أو العشيرة حسب الاصول العشائرية أو الدينية • أما القضايا التى تمس مصالحه أو كرامته أو حياته فلن تقيده فى حلها أى قوانين دينية أو قبائلية ، وسبيله الوحيد الى حلها هو الانتقام • وقد يبلغ انتقام الرئيس أحيانا أقصى حدود القسوة ان لم توقفه قوة فوق قوته • فالرئيس يتمتع بسلطة غير محدودة ضمن قبيلته لا تشابهها الا سلطة الملك المطلق • وكل من يتجاهل أوامره من أفراد القبيلة فانه يعرض نفسه للعقاب الصارم بالضرب أو النفى بل وحتى القتل • وهذا هو الاسلوب الذى يتبعه جميع رؤساء قبائل الزيبارى والهركى والسورجى التى تقطن لوائى الموصل وأربيل) •[3]

أما رئاسة القضاء القبائلى فانها بيد الرئيس الكردى ، فهو حامى القبيلة

---

(1) Nikitine, B., "Les Kurdes", Paris 1956, p. 133.

(2) Millengene, F., "Wild life among the Kurds", London 1870, p. 240.

(٣) قضاء عقرة – بقلم شاكر فتاح (كتاب غير مطبوع) عام ١٩٥١ ص ٦٢ – ٦٣ •

من الاعتداء الداخلى أو الخارجى • والواقع أن الفرد القبائلى يفضل قضاء الرئيس على قضاء الحكومة لسببين أولهما أنه يعتقد أن الرئيس هو مرجعه الحقيقى ، وثانيهما أن شكواه لدى المراجع الحكومية لا تأتى فى العادة بنتيجة سريعة كما قد تكلفه بعض النفقات •

ان المحاكمات القبلية تعقد فى العادة فى مضيف الرئيس ويحضرها الرؤساء الصغار وبعض أفراد القبيلة • ولا يتدخل الرئيس فى الخصام بين الافراد المتخاصمين ما لم يطلب منه أحدهم التدخل ، وتدخله فى الحقيقة نوع من التحكيم • ويحاول الرئيس الحصول على تعويض للطرف المتضرر الذى قد يدفع على شكل مال أو حيوانات أو نساء (فى القضايا الخطيرة) • وقد يقرر الرئيس فى قضايا القتل نفى الشخص المذنب خارج أراضى القبيلة ومصادرة أملاكه • ولا يصدر الرئيس حكما بالسجن أو الموت • وعلى العموم فان قضايا القتل لا تعرض فى العادة على الرئيس بل يلجأ الطرف المتضرر الى المقاتلة بالمثل بقتل فرد من أقرباء القاتل • وفى هذه الحالة تعد القضية مغلقة ، لكن أعمال المقابلة بالمثل قد تستمر فى بعض الحالات زمنا طويلا مما يحمل الرئيس الى التدخل وحسم النزاع • وتعرض فى الوقت الحاضر قضايا القتل على السلطات الحكومية مباشرة •

أما سيطرة الرئيس على أراضى القبيلة المشاعة فانه أمر يتمثل فى جميع الاشكال القبلية الكردية • ففى قبيلة بشدر يمثل الاغوات الميراودليين – وهم رؤساء القبيلة – طبقة الملاكين • كذلك شأن البيكات الذين كانوا رؤساء قبيلة الجاف المترحلة والذين يمثلون الآن ملاكى أراضى قبيلة الجاف• وهذا هو شأن بقية أجزاء كردستان ، حيث يشير تايلور الى حالة شبيهة فى كردستان التركى [1] •

ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة على ضوء طبيعة تكوين القبيلة الكردية ،

---

(1) Tylor, "Travels in Kurdistan", Journal of Royal Geographical Society, vol. XXXV, 1865, p. 50.

فالفخذ الحاكم ينال مركزه بقهر الافخاذ الضعيفة واخضاعها لسيطرته ثم الاستيلاء على أراضيها • ولهذا فالرئيس الكردى يتمتع بمزايا المالك الاقطاعى ، وهو ذو مركز شبيه بمركز البارونات الاقطاعيين فى القرون الوسطى • وقد كان اعتماد الدولة العثمانية على رئيس القبيلة فى جمع الضرائب عن الارض عاملا هاما فى تثبيت حقه فى أراضى القبيلة بمرور الاعوام •

٢ ـ القتال :

ان القتال من الصفات المتميزة للحياة القبلية الكردية • وقد كانت الحروب بين القبائل الكردية دائمة أثناء السيطرة العثمانية • أما فى الوقت الحاضر فان الحكومة تتدخل فى أى صدام قد يحدث بين القبائل • والواقع أن أسباب تلك الحروب ترجع الى عوامل سياسية وجغرافية ولا ترجع الى حب الاكراد للسلب والنهب كما زعم كثير من الرحالة الاجانب • ويتمثل أثر العامل السياسى بفشل الادارة العثمانية فى السيطرة على القبائل الكردية • والوقائع أن السلطات العثمانية لم تكن تتدخل فى شؤون القبائل الداخلية اذا كانت تدفع الضرائب ، فوعورة المنطقة الكردية وندرة المواصلات فيها يجعل من الصعب فرض السيطرة عليها • ويعود أثر العامل الجغرافى فى تشجيع القتال بين القبائل الكردية الى طبيعة أرض كردستان الوعرة • فوعورة المنطقة الكردية قد أدت الى التنافس الدائم على الاراضى الزراعية الخصبة وعلى المراعى الغنية • ولهذا فان عامل الاحتكاك بين القبائل المختلفة كان متوفرا على الدوام • هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان قلة مصادر المياه فى القرى الكردية كانت تحمل السكان الزائدين الى ترك القرية والهجرة الى أماكن أخرى لتخفيف الضغط عن المياه • وكثيرا ما يكوّن أولئك الجماعة المهاجرون الذين تربطهم رابطة النسب فرقة حربية تشن الغارات على القرى الضعيفة وتغتصب أراضى سكانها •

ويقول برتن Burton ان انعزال السكنى الكردية فى قرى

متفرقة ـ وهو أمر ناجم عن وعورة تضاريسها ـ قد جعل التعاون بين سكانها أمرا متعذرا • وقد أدى هذا بدوره الى أن تستقل كل أسرة كبيرة بقرية خاصة وتعتمد على نفسها فى انتاج حاجاتها الضرورية ، وأن تقف فى وجه كل غريب يتطفل عليها معتبرة اياه تهديدا لأمنها واطمئنانها الاقتصادى[1] •

وهناك أسباب ثانوية أخرى للحروب القبلية منها الانتقام الشخصى والثأر ، الا أن أمثال تلك الحروب تحدث فى أحوال نادرة للغاية ، وعلى نطاق محدود •

ويقوم الرئيس بقيادة المعارك المهمة ، أما الاغوات الصغار فيقومون بتهيئة جماعاتهم المسلحة ليكونوا تحت أمرة الرئيس ، ويشترك فى المعارك الواسعة النطاق جميع الافراد القادرين فى القبيلة الذين تتراوح أعمارهم بين سن الخامسة عشرة حتى الستين ممن يمتلكون السلاح ، بينما يقوم بقية أفراد القبيلة باعانة المتحاربين • أما المعارك الصغيرة فلا يشترك فيها الا أشخاص معينون ممن لهم ولع خاص بالقتال • [2]

ان الغزوات والحروب القبلية الكردية تلتزم بتقاليد خاصة تكاد تشبه فى سطوتها القوانين • وقد ذكر ويگرم Wigram فى صدد الحديث عن تقاليد الغزوات الكردية انها تسمح بنهب الحيوانات والاسلحة والاثاث المنزلى ولكنها تحرّم حرق البيوت واتلاف المزروعات وتخريب قنوات الرى • كما ذكر أن تقاليد الغزوات تحرّم التعرض للنساء أو الشيوخ بأذى حتى أنهم لا يحتاجون الى أية حراسة أثناء الهجوم • [3] وقد أيد هذه الاقوال مارك سايكس Sykes واكد أن الغزوات القبائلية لا تمس الممتلكات الثابتة بأذى ، الا أنها لن تتقيد بأية قوانين اذا ما اشتركت السلطات

---

(1) Burton, H.W., 'The Kurds' Journal of Royal Central Asian Society, No. 8, p. 72, vol. XXXI, 1944.

(2) Barth, F., Principles of social organizotion of Southern Kurdistan' Oslo 1953, pp. 54-55.

(3) Wigram, W.A. & Edgar, T.A.,' The cradie of mankind' London 1914, pp. 167-8.

الحكومية فى تلك الحروب ، بل تحاول أن تنزل بها أفدح الاضرار [1] .

ويتصف الاكراد بكونهم محاربين شجعانا وصبورين . ولقد وصفهم الكابتن هاى Hay الذى اشترك فى عدة معارك ضدهم بأنهم محاربين فاشلين[2] ، الا أن مارك سايكس الذى شهد أيضا عدة معارك من معاركهم يؤكد أن قهرهم فى القتال أمر غير يسير [3] .

٣ ـ المسؤوليات القبلية :

لقد ذكرنا بأن الرباط العام بين أفخاذ القبيلة يتمثل بسكناها فى منطقة واحدة وخضوعها الى رئاسة مركزية . لذا نجد أن الرباط الوحيد الذى يربط الافخاذ المختلفة ببعضها هو الاشتراك فى القتال ، ولا يوجد أى رابط اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى بين الافخاذ المختلفة ، ولكن أفراد الفخذ الواحد يرتبطون بروابط متنوعة تتمثل بالمسؤولية المشتركة والتعاون الاقتصادى والمشاركة فى الاحتفالات المختلفة .

فالمسؤولية المشتركة تتمثل بالاشتراك فى القتال مع أية جماعة من جماعات الفخذ تتعرض للاعتداء . ولا تظهر هذه المسؤولية فى الحوادث الفردية . فحادثة القتل التى تقع على فرد من أبناء الفخذ لن تجر أفراد الفخذ الآخرين الى معركة مع الطرف الآخر ، بل يتكفل أقرباء القتيل الاقربون بالانتقام ، الا اذا كان الشخص المقتول أحد الرؤساء . لذلك لا يمكن اعتبار (الثأر) مسؤولية قبائلية بل هو مسؤولية عائلية .

أما التعاون الاقتصادى فيتمثل بالملكية المشتركة لأراضى المراعى ولمصادر المياه ، وحتى للاراضى الزراعية فى بعض الاحيان . ولعل هذا التعاون يبدو أكثر وضوحا فى حالة القبائل المترحلة ، فالفخذ يمتلك مساحة معينة من الارض بصورة اجماعية كمرعى لحيواناته ، أو قد يؤجر أفراده بصورة مشتركة أرضا معينة كمرعى لحيواناتهم .

---

(1) Sykes, sir Marks, 'The Caliphat last heritage' London 1915, p. 234.

(2) Hay, W. 'Two years in Kurdistan' London 1921, p. 72.

(3) Sykes, Marks, 'Dar ul-Islam' London 1904, pp. 191-2.

وفى حالة القبائل المستقرة يتقيد أفراد القبيلة بالملكية المشاعة لمصادر المياه • ويتحمل الكوخا (مختار القرية) فى العادة مسؤولية تطبيق هذا القانون الاجتماعى بحيث لا يحاول أحد الافراد الاستيلاء على مياه للرى تفيض عن حقه • وبما أن الملكية الاسمية للارض الزراعية تعود الى الاسرة الحاكمة فى القبيلة فان للرئيس الحق فى الاراضى الزراعية بين أفراد المجتمع القبائلى • والواقع أن لكل فلاح من أبناء القبيلة حقا تقليديا فى مساحة معينة من الارض • ويتم اعادة توزيع الارض بين الفلاحين كل عام أو كل عدد من السنين • وليس من الضرورى أن يقوم الرئيس نفسه بهذه العملية • فقد يتولاها مجلس مؤلف من الشيوخ فى القرية يقوم بتوزيع الارض على فلاحى القرية كلا حسب طاقته وحقه المتوارث •

أما مراعى القرية فانها تعتبر ملكا مشاعا لجميع السكان • ويتضح التعاون الاقتصادى بين أفراد الفخذ الواحد أيضا فى داخل القرية بتأجير راع معين للقيام برعى حيوانات القرية بصورة مشتركة •

أما المشاركة فى الاحتفالات فانها تشمل الاعياد والزواج والوفيات ، ففى أيام الاعياد يقوم ابناء الفخذ أو القرية بتبادل الزيارات • كذلك ان أعضاء الفخذ ملزمون بالمشاركة بحفلات الزواج وبتقديم الهدايا لأسرة المتزوج • ولكن أعظم المناسبات أهمية هى مناسبة الوفاة ، فتجاهل تقديم التعزية لأسرة المتوفى وعدم الحضور الى حفلات الوفاة أمر لا يمكن أن يغتفر ، وخاصة اذا كان الشخص المتوفى أحد رؤساء القبيلة ، لذلك فان حفلات الوفاة للافراد القبائليين تستغرق وقتا أطول من حفلات الاشخاص غير القبائليين ، وهى لا تقل عن أسبوع على أية حال من الاحوال ، وفى حالة وفاة رئيس القبيلة أو أحد الرؤساء الصغار فان حفلة الوفاة قد تستغرق أكثر من شهر • وفى هذا الاثناء يتقاطر أفراد القبيلة على بيت المتوفى حاملين معهم الهدايا من السكر والشاى والرز والحيوانات •

هذه هى أهم المميزات للحياة القبلية الكردية وهى كما يبدو شبيهة فى أغلب مظاهرها بصفات الحياة القبلية العربية •